قراءة النقد لتراث النص الشعري الجزائري المعاصر

الشاعر الجزائري المعاصر والموروث الشعري العربي القديم لـ محمد الصالح خرفي نموذجا

د.حفيظة بن قانة جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريريج

الملخص:

تحاول هذه المقالة، ومن خلال نموذج الناقد الجزائري: **محمد الصالح خرفي**؛ "الشاعر الجزائري المعاصر والموروث الشعري العربي القديم"، توضيح إلى أي مدى استطاع ناقد القصيدة الجزائرية المعاصرة الانفلات من ضغط المعاصرة التي ارتبطت بالانفتاح السلبي على الوافد الثقافي الغربي، وما هو مفهومه للموروث؟ هل هو مجرد الركون إلى التقليد؟ ثم ما مدى جديته في التأسيس لبصمة تميُّز، تنطلق به مع نص القصيدة الجزائرية المعاصرة صوب التطور؟

الكلمات المفتاحية: قراءة/ النقد/ التراث/ النص الشعري/ المعاصر.

Abstract:

This article tries, through the model of the Algerian reviewer: Mohammed Salah KHARAFI, the Algerian contemporary poet and the old Arabic hereditary poet, to clarify how did the reviewer of contemporary Algerian poetry get away from the contemporary pressure which was related to the negative openness of the western cultural entrant, and what is his concept of the heredary? Is it just a depending to tradition? Then how serious to establish a distinctive fingerprint, which starts with the text of the contemporary Algerian poetry towards evolution?

Key words: reading, criticism, heritage, poetic text, contemporary.

تمهيد:

يشكل مصطلح **التراث** ذاكرة الشعوب ومخزونها الذي لا يركن إلى خاصية مميزة، ولا تحدده نهاية، فالتراث « ليس هو ما ينتمي إلى الماضي البعيد وحسب بل هو أيضا ما ينتمي إلى الماضي القريب والماضي القريب متصل بالحاضر

والحاضر مجاله ضيق فهو نقطة اتصال الماضي بالمستقبل وإذن فما فينا أو معنا من حاضرنا من جهة اتصاله بالماضي وهو تراث أيضا »(1)

فالتراث دائم التجدد والتغير، ولا يقتصر على ما يصلنا من الماضي، بل هو متضمن حتى في حاضرنا ويؤثر في تطوير مستقبلنا، إنه « خزان للأفكار والرؤى والتصورات تأخذ منه الأمة ما يفيدها في حاضرها، أو ما هو قابل لأن يعين على الحركة والتقدم »(2).

ويعني مصطلح **قراءة** مشتركا تواصليا بين المؤسسة الكتابية والمؤسسة الاجتماعية والآليات القرائية، وحين يلتقي مصطلح "قراءة" ومصطلح "تراث" يتشكل ما يعرف بـ"إشكالية قراءة التراث" التي يجب إيقاظ الوعي القرائي/النقدي حتى يفهمها، حيث كما يرى **جابر عصفور** الوعي بالتراث من حيث كونه إشكالية « قائمة في جدول الأنا مع ماضيها وحاضرها ومستقبلها من ناحية، وجدلها مع الأخر الذي يتدخل في نظرتها إلى الدافعية التي تتحرك وراء الوعي بحاضرها وماضيها ومستقبلها من جهة ثانية »(3).

1- القصيدة الجزائرية المعاصرة ونقدها؛ رحلة البحث عن النضج والتميز:

يقودنا البحث في ماهية النص الشعري الجزائري المعاصر نحو أرضية متحركة قوامها الاختلاف والتشعب، حيث نتيه في شساعة الركام المفاهيمي لمصطلح "النص"، ويرمينا مصطلح "الشعري" وسط أسلاك متشابكة من النظريات الساعية في محاولة تحديده، ويحتكم مصطلح "المعاصرة" إلى تيارات تعددت مشاربها.

لكن باستطاعتنا المساهمة في تراجع حجم التوتر وتلاشي فعالية الضبابية عبر الكشف عن نسب الزخم الفكري والجمالي المجسد في هذه القصيدة الجزائرية المعاصرة، إذ أن تجاهل أصل جذورها القوي الذي يمتد عمقا إلى قصيدة العرب الجاهلية، معناه الادعاء بأبترية ميلادها، في حين أن الواقع يقدم لنا صورة واضحة

المعالم تخبرنا عن تلك الوفود الفاتحة التي قدمت بلاد المغرب العربي، وحملت في جعبتها الدين وتراث العرب الثقافي والشعري....

والقصيدة الجزائرية استطاعت تجاوز الفهم الخاطئ للمعاصرة حتى في أكثر الظروف القاسية التي فرضها الفكر الاستعماري الساعي إلى طمس الموروث الثقافي والأدبي...، حيث لم تتوانى عن تحقيق هدفها الرامي إلى اكتمال أدواتها الكتابية ذات الطابع الخصوصي العربي الجزائري، « فلقد وجد في ذلك الخضم من أبناء هذا الشعب العظيم من شق طريقه وسط الزعازع في صعوبة لا تنكر وشدّة لا تخفى...واستطاعوا أن يتحدوا ذلك الألم وتلك المرارة في صولة تحدّ صارمة وثورة عزم حازمة .. وتلك هي شيم النفوس الأبية لا يزيدها الضغط والتحدي غير إيمان ومواجهة وإستماته ومخاطرة... من أجل كلمة ثابتة، من أجل مبدأ راسخ ».(4)

ويطالعنا **محمد السعيد الزاهري** كواحد من النماذج الواعية بالخصوصية الكتابية والفنية، حيث يقول: « أعرض على أدبائنا وكتابنا الجزائريين هذه القصيدة القصيرة، وأرجو من كل أديب (قدر على نقدها) أن ينتقدها انتقادا أدبيا، وأن يرينا أنموذجا من هذا الفن الجميل، فن النقد الذي هو ميز الخبيث من الطيب، والخطأ من الصواب، والصحيح من الفاسد، فإننا قد عرفنا أنّ بالجزائر شعراء فحولا، وكتبة متقدمين، وعرفنا مقدرتهم في أغلب وجوه الكتابة إلا في النقد الأدبي، فإننا لم نعرف مبلغه ببلادنا الجزائر. فهل يتقدم أحد من حملة الأقلام إلى هذه القصيدة، فينتقدها بإنصاف يكشف عن سيِّئاتها، ولا يظلم حسناتها؟، ليس الانتقاد هو الاقتصار على المدح أو القدح متى وجدا معا »(5).

ما يهمنا من هذا المقتطف، هو شهادة **محمد السعيد الزاهري** على بروز ثلة من الشعراء تسعى جاهدة لإبراز مقدرتهم الكتابية المتميزة عن الثقافة الاستعمارية التي فرضت نفسها كبديل للموروث الثقافي والعربي القديم.

فكيف للقصيدة المعاصرة اليوم، بما تعيشه من حرية اختيار، أن يغيب عنها الوعي بمخاطر الانفتاح اللامشروط على الأدوات الكتابية الغربية المحملة بثقافة مختلفة؟.

كذلك النقد المعاصر في الجزائر، وهو يبحث عن هويته وما يجدد آلياته ومناهجه، عليه أن يتسلح بالوعي في مواكبته الراهن بمختلف تغيراته وتكويناته الثقافية والحضارية... لأن النقد إذا كان « حلقة في السلسلة الثقافية التي تسود المجتمع في ظروف معينة، فإنه –من غير شك– يتأثر بالوضع الثقافي العام في الوقت الذي يمارس فيه –هو الآخر– تأثيره في البنية الثقافية»(6).

والأدب كأهم مكون ثقافي للمجتمع، ومنه القصيدة، ولأن النقد يؤثر فيها بالقدر الذي تؤثر فيه تطورا أو ركودا؛ كان لزاما عليها أن تدفع به إلى صقل منظوره بأسئلة نوعية، على غرار:

ما المراد بخصوصية الشعر الجزائري؟

هل لشعرنا ملامح تميزه عن غيره؟

أم أنه لا يعدوا أن يكون تكرارا لأصوات متعددة تختلف عنه؟

مثل هذه التساؤلات –وغيرها كثير– حينما تثار ضمن الرزنامة الأساسية لجدول أعمال المشروع النقدي الجزائري المعاصر تبشر بوضوح الرؤية وسلاسة المسار الذي اختاره النص الشعري الجزائري المعاصر ونقده؛ استهدافا لبناء خصوصية جزائرية متميزة، في ظل سيطرة الحراك الواسع الذي تشكله المناهج والأشكال والنظريات والمفاهيم .. الغربية والغريبة عن مرجعيتنا الفكرية والجمالية.

2- النقد المعاصر في الجزائر يكشف علاقة النص الشعري المعاصر بالتراث:

إن القصيدة المعاصرة حتى تجسد ذاتها ولا تكون غيرها، عليها أن تتيقن بأن ملامح تميزها تستشفها فقط من ماضيها، ونقدها عليه أن يكون مطيتها للخروج من متاهات الفهم الخاطئ للمعاصرة.

ولعلنا نرصد بدءا من عنوان المقالة قيد الدراسة ولوجا إلى الكلمات التي خطّ بها الناقد **محمد الصالح خرفي** فاتحة مقالته –القائل فيها أن الشاعر الجزائري عاد « إلى البنية النصية الجاهلية المتمثلة في نص الأطلال محاولا إعادة التجربة الطلالية بصورة موافقة للتجربة المعاصرة فبنى الحاضر على الغائب » (7)–، أن مثل هذه الرؤية تنبؤنا بوعي نقدي يأبى التحيز وسكونية التقليد، وبتطلعه إلى بناء حاضر القصيدة الجزائرية المعاصرة، إنما هو يدعوها لا للوقوف عند محاكاة التراث بل مواجهته وغربلته استخلاصا لجوانبه المضيئة وترويضها خدمة لواقعها.

يقول الناقد **محمد الصالح خرفي:** « فالشاعر الجزائري خليفة بوجادي عاد إلى المخزون الشعري العربي القديم مستلهما النصوص الشعرية السابقة الغائبة لإنتاج نصوص جديدة موافقة لمواقفه وأفكاره ومعانيه الجديدة فيحدث بذلك التداخل النصي عبر هجرة تلك النصوص ... بشرط أن يحدث التمايز النصي ولا يكون النص الحاضر صدى للنص الغائر في الذاكرة الشعرية، ليحدث المتعة القرائية ولا يصبح نصا في مستوى أقل من النص الأول »(8).

وفي هذا تأكيد من النقد على ضرورة إرضاء ذوق القارئ المعاصر المؤسس على معرفة ثقافية وجمالية متنوعتين، من خلال استغلال مختلف الوسائل المتاحة للرقي بمستوى النص الشعري، ومراعاة ملامح هذا الأخير الخاصة وسط زخم من الأصوات الخارجية تسعى للتشويش على صلابة بنائها.

يقول الناقد **محمد الصالح خرفي:** « وقد أخذ الشاعر الجزائري بمبدأ العودة إلى الموروث اللغوي للإستفادة منه في بناء نصوصه الشعرية، ولإحداث التواصل مع القارئ، الذي يشترك معه في الأرضية اللغوية، فالموروث الشعري أساس الشعر

الحديث والمعاصر، وهو الخلفية الأساسية للكثير من النصوص، والرجوع إليه رجوع إلى الأصل » (9).

وعندما يتحدث النقد أيضا عن التواصل مع القارئ المعاصر الذي غدا يعايش النص ويحاوره، ويوجه تشكل التجربة الشعرية صوب الموروث، يتجلى أن هذا التشكل سينبثق منه العديد من التحولات، فالنقد يحرض النص الشعري على تفجير المساءلة الدائمة لذاته وتراثه بالقدر الذي يحقق له معالجة رصيده الفكري والجمالي.

ولعله من الواضح أن التناص كآلية حية تفرض فعاليتها على مسايرة مثل هذه الممارسات التواصلية، وتكشف من جديد عمق الوعي النقدي للمقالة قيد الدراسة، فالناقد **محمد الصالح خرفي** يرى في التناص وسيلة النص في البحث عن خصوصيته، فهو خيط الوصل بين حاضر النص الشعري المعاصر وماضيه وبينه وبين متلقيه، وهو التي تجد فيها الجمالية متنفسها، يقول الناقد: **محمد الصالح خرفي:** « ويبقى النص الشعري المتميز المستمر في الزمان والمكان يغرف من لغة الأجداد مرسخا شعريته عبر ما يزخر به من إبداع، وليس لأنه ساير التقاليد اللغوية والعروضية، وليست الشعرية أيضا الثورة على كل ما هو قديم، والتأسيس لجديد يتنكر للماضي، بل الشعرية تتجلى في النص عبر تمفصلاته والاستفادة من الثقافة الفنية ومن الفرص التي تتحيها وسائل الطبع والنشر ومن تقنيات الفنون النثرية التي ينحرف بيها الشعر إلى فضاء فني جديد » (10).

هذا الطرح أقل ما يقال عنه أنه رؤية نقدية واعية عارفة بحيثيات المسؤولية الملقاة على عاتقها، فالهدف هو الوصول بالنص الشعري الجزائري المعاصر إلى ركب التطور والتجديد، وذلك لن يكون إلا ببناء بصمات خاصة هي خلاصة من الماضي المشرق وليست كله، مضاف إليها روح العصر بما يحمل في رحمه من تحولات عل أكثر من صعيد.

يقول الناقد: **محمد الصالح خرفي:** « فالشاعر الجزائري يتناص في نصوصه مع الشعراء العرب القدامى ومع الشعراء المعاصرين ومع القرآن الكريم ومع أشعار الصوفية، في محاولة منه للسمو باللغة الشعرية وتطوير النص الشعري والكتابة عموما.. وهذا التناص اللغوي .. حيلة فنية ووسيلة للتعبير، أصبحت ميزة القصيدة الجزائرية المعاصرة ... مما جعل لجوء الشعراء الجزائريين إليه مبررا وله مسوغاته، إن على المستوى النصي أو على المستوى القرائي، وفي كل الحالات هو إغناء للنص الشعري الجزائري المعاصر ودفع له »(11).

يفتح بذلك هذا النوع من النقد، النص الشعري المعاصر حتى يمتلك طاقة استيعابية لا ترضى إلا بالاستمرار والتجدد، يتعايش فيها الموروث بتجاربه والحاضر بمنجزاته، إلى جانب الفكر بتلويناته والثقافة بتنويعاتها، كذلك فنيات الكتابة والأسلوب والتناص ...

ولعل حرص الناقد على التطوير النوعي للنص الشعري المعاصر، جعله يجند له عبر خاتمته خطوات تنير فهمه وتوجه وعيه، حيث يقول فيها:

« بلاغة النص تبدأ من بلاغة اللغة وكيفية التعامل معها وتوزيعها داخل النص من جهة، ومن جهة طريقة الشاعر في التعامل مع الموروث الشعري القديم والمعاصر، الخاص به أو بغيره من الشعراء، من جهة ثانية، ومن قدرته على الخروج بمكوناته المكانية(وأماكنه الذاتية) من بعدها الثنائي الهندسي إلى بعد متعدد الأبعاد(ذهني/شعري) من جهة ثالثة، ومن كيفية توزيع سواد النص على بياض الورقة من جهة رابعة، ومن الصورة التي يخرج بها القارئ بعد قراءة النص الشعري من جهة خامسة »(12).

فقراءة التراث حسب ما يوضحه صاحب المقالة، لها من الدور ما يكفي لتأسيس حاضر القصيدة الجزائرية المعاصرة، واستشراف مستقبلها المثمر، وذلك خاصة عبر استوسال محصلة الإمكانيات المتوفرة، وتجاوز الفهم اللاواعي للتراث الذي إما يقع في خانة التقليد أو القطيعة والسعي لمماثلة الآخر.

الهوامش والإحالات:

1- محمد عابد الجابري، مدخل الى القرآن الكريم، مركز الدراسات الوحدة العربية، ج1، ط1، بيروت، 2007م، ص: 13.

2- محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، دار البيضاء، المغرب، 2003م، ص:16.

3- جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، ط1، 1991م ص: 3.

4- الطاهر يحياوي: البعد الفني والفكري عند الشاعر مصطفى الغماري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص: 15.

5- عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص: 263.

6- مخلوف عامر، متابعات في الثقافة والأدب، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، ط1 ،2002، ص: 205.

7- محمد الصالح خرفي، "الشاعر الجزائري المعاصر والموروث الشعري العربي القديم". الملتقى الأول، الجزائر: قسم اللغة والأدب العربي التراث العربي وجديد القراءات النقدية برج بوعريج، 2011. ص: 133.

8- المصدر نفسه، ص: 134.

9- المصدر نفسه، ص: ن.

10- المصدر نفسه، ص: 140.

11- المصدر نفسه، ص: 141.

12- المصدر نفسه، ص: 141-142.

قائمة المصادر والمراجع:

1- جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، ط1، 1991م.

2- الطاهر يحياوي، البعد الفني والفكري عند الشاعر مصطفى الغماري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

3- عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

4- محمد الصالح خرفي، "الشاعر الجزائري المعاصر والموروث الشعري العربي القديم". الملتقى الأول، الجزائر: قسم اللغة والأدب العربي التراث العربي وجديد القراءات النقدية برج بوعريج، 2011.

5- محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، دار البيضاء، المغرب، 2003م.

6- محمد عابد الجابري، مدخل الى القرآن الكريم، مركز الدراسات الوحدة العربية، ج1، ط1، بيروت، 2007م.

7- مخلوف عامر، متابعات في الثقافة والأدب، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، ط1 ،2002.